وبدلال حمل مغزاه قال:

– المهم أن أكون ملكة قلبك.

بصدق تقاطر ندياً:

– لقد استحوذت على العرش كله.

غردت الكلمة في شراييني. رقصت في معطف قلبي. نداؤه يغريني:

– تعالي ننام.

تحوّل الرماد سريراً ليّناً. استلقينا عليه دافئين، أزحت جسدي قليلاً لأوسع له. شدني. صوته شجيّ كالناي:

– لا تبتعدي. الليلة أنت لي.

– وكل ليلة. روحي لك جنّة. جسدي لك بحر.

لمست التاج. حرّرتني اللمسة من كل ثيابي. تسكعت نظراته الوالهة على التفاصيل المضيئة. تلمست كفّاه دروب الجنة والنار. أمطرت سماؤه. أنعشت الزنابق. التين والزيتون. تفاح الجنان. كرز الحدائق. مزارع البن الأصيل. ذبتُ. تمنيت أن أبقى هكذا حتى ما بعد الصحو والأحلام. أنامله فوق التاج. شفته في مغارة سمعي تحذرني بحنان:

– إياكِ أن تنزعيه. وكلما احتجت إليّ اطرقي عليه هكذا..

تك ..تك...

• • •

دقات الباب تتواصل. فرّ النومُ فزعاً. وحدي في الفراش الثلجيّ. رائحة جسدي حريق. رائحة وسادتي رماد. قفزت من السرير إلى المرآة. شعري منسدل. غُرّتي تكاد تدفن كل جبيني. لا شيء فوق رأسي ولا داخله. أين ذلك الألم العاصي وطرقات المطارق؟ أينَ التاج؟ التاج! درتُ كالمجنونة. أنكش الفراش. الأثاث. الأدراج. لم أعثر على شيء. تزحلقت إلى الأرض أنتحب غير عابئة بالطرقات المتوالية على الباب. صوت يشع في جسدي. ذبذبات. حكايات. قصائد. يدسّ همسه الوديع: «التاج على رأس الملكة».

حركني نشاط مفاجئ نحو الباب. وجه أختي وصوتها الخائف:

– طرقت كثيراً. ما هذا النوم البليد؟

وأردفتْ قبل أن أجيب: ما أجمل شعرك اليوم. كيف آلام رأسك؟؟

نظرت الى الهاتف. اتصلت بالطبيب. بادرته معلنةً عن نفسي. ألقيت عليه قراري:

– سأردّ لك كل الأدوية. لم أعد بحاجة لها.

الكـويت

حكايةُ الذّئب والولد الحزين

فكّر الولدُ الحزينُ في أن يضرب الباب بقبضتيه، أو أن يعوي. كان قد رأى، مرّةً، ذئباً يعوي ويتقلّب في الوحل، والفخُ المسنونُ مطبَقٌ على فكّه الأسفل. بكى يومها كما لم يبكِ أبداً، ونام وهو يدعو على جدّه بالموت حَرْقاً، لأنه هو الذي كان قد وضَع الفخّ للذّئب.

وحينما لم يستطعْ أن يضرب البابَ بقبضتيْه، أو أن يعوي، تكوّم حول نفسه كنقطة حِبْرٍ في الزاوية المعتمة من الغرفة، وراحَ يتذكّر يومَ الذئب: سماءَ الشتاء البرصاء، والترابَ الجامد الكريه، والجلدَ الممزّق حول فكّي الذئب، وعواءَه اللاّسع، ودمَه الغريب الذي كاد أن يكون إنسانياً، وقهقهَةَ النّصر الحيوانية التي أطلقها جدّه.

كان يومها، وبعد أن عاد الجميع إلى القرية، قد عاد إلى مشارِف الغابة، وحمل الذئبَ الصغير ليواريَه الترابَ. لكنه انتبه، في غمرة حزنه، إلى عينيه اللتين لم يغمضهما الموت. وتوقف مشدوهاً وهو يصرخ: «كلّ هذه الألوان! كلّ هذه الألوان!». وراحَ يردّد كالمغمور: الأسودُ الحبريّ – البرتقاليّ الناريّ – الأزرق المرجانيّ – الأصفر – الأخضر – البنفسجي – الكستنائي – العسلي – الزمرّدي – الأحمر النبيذي – الأحمر القاني – الأبيض الثلجي – الأبيض الحليبي...

وحينما تذكّر عرسَ الألوان ووحشتها، قام إلى ألوانه المائية، وراحَ يمزجها بعنف، ويضرب الورقة بكفّيه الملطختين بالألوان. ثم أطفأ المصباح الغازي. وخرج يعوي، ويضرب بابَ غرفة جدّه بقبضتيه.

وفي الظلام الكثيف شُوهِدَ كهلاً يكتبُ قصصه، وتحت نظارته، تضحك عينا ذئب صغير.

المرأة في غرفة نومها

كانت مأخوذة بلوحتها الأثيرة. تبكي حيناً، تضحك حيناً، وتقرص فخذيها كي تفيق، وعلى طول الجدار المقابل للسرير، لم تأتِ النّارُ التي أضرمتها في ملابسها الداخلية على شيء يذكر. بل كانت تترقرق بلطف على الجدار، متموجة هاذية. وكانت ألسنتها الزرقاء القصيرة تتراقص فوق الثياب، تلحسها، تتوغل في نسيجها من الجهتين، تطاول مساحته، وتعود إلى موطنها من الشعلة، دون أن تحوّله إلى رماد.

ظلت المرأةُ عاريةً أمام لوحتها الأثيرة، المعلّقة على الجدار الجانبي، الذي يفصل بين السرير وباب الغرفة، والذي شغلت نصفَه السفليَّ مرآةٌ بلوريةٌ كبيرة في إطار نحاسي رفيع. كانت ترقص وتبكي، وهي تبحث في فرعها عن أصل الشجرة. تدور حول نفسها هاذيةً، تلقي بجسدها النحيل على الفراش. تمرّغ وجهَها في الزهور المجفّفة المنثورة فوقه، وتعود محمومة عطرة، لتقف أمام اللوحة.

كانت زهور فان غوغ تتدلّى بأعناقها البذيئة، وأصفَرها الوحشي، من إطار اللوحة المصوّرة، كلّما تعرّت المرأة وأضرمت نارها الصغيرة المقدّسة في ثيابها الداخلية. وألقت بنهديها في قلب اللوحة باكية، ودارت حول نفسها هاذية، وأعلنتها أصلَ الشعلة...

وعندها، تندلق على صفحة المرأة، التي تشغل نصف الجدار، تحت اللوحة، عشراتٌ من الآذان الدّامية.

البشير الجراري
اغادير (المغرب)